تقديم

يتحدّث هذا الكتاب عن المذاهب الأدبية الغربية بدءاً من الكلاسيكية حتى الوجودية ، وهو يعرض لنشأة هذه المذاهب وأصولها الفكرية والفنية ، والظروف والملابسات المختلفة التي كانت وراء ولادتها .

وهو يبيِّن ـ على نحو جليّ ـ أن هذه المذاهب الغربية التي تسمّى «أدبية» ليست أدبية فحسب ، وليست مسائل تتعلّق باللغة والنقد وقضايا الشعر والقصة والمسرح وما شاكل ذلك فقط ، ولو كانت كذلك لهان الخطب ، ويَسَرَ الأمرُ ، ولكنها ـ وهذا مربط الفرس ـ تمثّل عقائد وإيديولوجيات ومواقف فكرية من الكون والحياة والإنسان ، بل من الأديان والوحي والنبوة والألوهية في بعض الأحيان .

يقول الدكتور شكري عياد عن بعض هذه المذاهب : «إن الحداثة ـ مثل الواقعية الاشتراكية ، وبخلاف الشعر الحرّ ـ مذهب أدبي له جذوره الفكرية ، وليس مجرد نمط شكلي لغوي ، وظاهرةٍ اجتماعية أدبية . .»[(١)] .

ويقول تيري إيغلتون في كتابه نظرية الأدب : «ما أحاول أن أظهره في هذا الكتاب هو أن تاريخ النظرية الأدبية الحديثة جزء من التاريخ السياسي والإيديولوجي لحقبتنا . . »[(٢)] .

ولأن هذه المذاهب غربية ، مما يعني ـ بداهةً ـ أنها نتاج حضارة مختلفة في القيم والتوجهات والتصورات الفكرية عن حضارتنا الإسلامية العربية ، فإن الأَبْدَهَ من البدهي أن نجد فيها الكثير الكثير مما يتنافى مع عقيدتنا ولغتنا وذوقنا .

---

(١) المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين : ص٦٢ .

(٢) نظرية الأدب : ص٣٢٦ (ترجمة ثائر ديب ، دمشق : ١٩٩٥م) .

ولذلك فإن هذا الكتاب لا يقدِّم هذه المذاهب الأدبية مجرد تقديم كما فعل ذلك كثير من الدارسين والباحثين العرب المعاصرين ، بل يقدِّمها أولاً بموضوعية كما يتبناها أصحابها ، ثم يشفّع ذلك بتقديم رؤية فكرية وفنية عنها .

وهذه الرؤية الفكرية منبثقة من عقيدة هذه الأمة ، وهي الإسلام ، فعلى محكها نضرب جميع الأفكار والتصورات الفلسفية التي تأتينا من الآخر ، فما اتفق معها قبلناه ، بل عددناه حكمة تغني ما عندنا ، وما تنافر معها ، أو تناقض ، أو اختلف ، نبذناه نبذاً ، بل عددناه مفسدة وانتكاسة في الفكر .

إن الشخصية الإنسانية السوية هي التي يكون لها موقف فكري متماسك ، تنطلق من خلاله ، وتسير على هديه ، وتلتزمه في كل ما تأتي وتدع . وهذا موجود عند الناس الأسوياء جميعاً ـ مهما كانت مشاربهم ودياناتهم وتوجهاتهم ـ ولا يشذ عن ذلك إلا المذبذبون المنافقون ، ممسوخو الشخصية ، الذين هم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

وأما الرؤية الفنية فهي أقلّ أهمية من الرؤية الفكرية ، ذلك أن الأشكال الأدبية هي ـ في رأينا ـ محايدة بشكل عام ، لا يدخلها حلّ ولا تحريم ، ولكنها ـ مع ذلك ـ ليست غائبة تماماً ؛ إذ إن للغة العربية ، وللذوق الأدبي العربيّ ، ولطبيعة الأدب العربي ، خصوصية فنية متميّزة لا يجوز أن تُتَجَاهل ، ومن ثمّ ، فإن بعض الآراء الأدبية التي جاءت بها هذه المدارس لا تتفق مع الذوق الأدبي ، ولا مع طبيعة اللغة العربية ، وطرائقها في التعبير والأداء ، ولا مع أعراف الفصاحة والبلاغة في هذه اللغة العظيمة .

* * *

وعلى أن نقدنا الفكري والفنيّ لهذه المدارس الغربية لا يعني الرفض التام لها ، ولا يعني تجاهلها ، أو الدعوة إلى غلق الأبواب والنوافذ دونها ، ولكنه تنبيه على أنه ينبغي التعامل معها بحذر ، وتعاطيها على بصيرة ، من غير انبهار ، ولا اندهاش ، ولا استلاب ، يعني أن نقاربها بمنطق «الاصطفاء» والاختيار ، في ضوء الرؤية الفكرية والفنية التي تحدَّثنا عنها .

وفي ضوء إدراك أن تفوّق الغرب التكنولوجي والعلمي لا يعني ـ على الإطلاق ـ تفوّقه الفكريّ علينا ، بل العكس ـ في رأينا ـ هو الصحيح ، فحضارتنا هي الأمثل ، لأنها حضارة ربانية ، معتمدة على وحي ونبوة وكتاب وسنة ، وكلّ ذلك مما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من وراء ظهره ، وهو معصوم من الزلل والنقص ، ومبرًّأ من الشطط والانحراف والغلو .

وإنه لشتان ما بينه وبين الاجتهاد البشري الناقص دائماً من وجه ، والمعتمد على الهوى الشخصي ، والمصلحة الفردية ، والنظرة القاصرة من وجه آخر .

لقد وقعت المذاهب الغربية الحديثة دائماً في مزلق الأحادية والتطرف ، ففرطت في جوانب على حساب جانب ، وتعامت عن وجوه كثيرة على حساب وجه واحد فقط .

يقول الدكتور عز الدين إسماعيل : «إن المذاهب الغربية ـ على نحو ما وصلتنا ـ مثّل كل منها تطرفاً في جانب معين ، مما جعل الناس تحسّ ـ بعد فترة معينة ـ أنه ليس كافياً للتعبير ، فيمضون يبحثون عن أسلوب جديد . . »[١] .

وهذا حق ، نضيف إليه أن الفكر الغربي ـ في ظل فقدانه ثوابت عقدية ما ، أو يقينيات فكرية بعينها ، وفي ضوء شكه الدائم في كل شيء ـ فكر ثائر جموح باستمرار ، لا يفيء إلى شاطئ ، ولا يعرف الاستقرار ، ولا الثقة ، ولا اليقين ، ولذلك فهو ـ في كلّ يوم ـ يتفتق فكره عن «بدعة» جديدة ، وعن «تقليعة» طريفة ، يخرج بها على المألوف ، وهو ينبهر بها حيناً ، ويروّج لها ، ثم ما يلبث أن يسأمها ويزهد فيها .

* * *

إن أدبنا العربي الذي لا ينبغي له ـ كما قلنا ـ أن يغلّق نوافذه في وجه أي فكر جديد ، أو ينعزل عنه ، أو يجهله ، ولكنّ عليه ـ في الوقت نفسه ـ ألا ينبهر به ، أو يستسلم أمامه ، وألا تأخذه الجدة والطرافة اللتان فيه ، فما كل جديد بخير ، وما كل بدعة بمستحسنة ، بل ما أكثر الشرّ والفساد اللذين يحملهما الجديد أحياناً!

---

(١) الأدب وفنونه : ص٥٤ .

إن كل ما يؤخذ أو يترك ينبغي أن يكون منضبطاً بقواعد الشرع ، محتكماً إلى رؤية فكرية وفنية نابعة من خصوصية هذه الأمة التي ننتمي إليها .

وعلى هذا الأدب أن يسعى جاهداً لإنشاء مذهبه الفني المتميّز ، مذهبه الذي يعبر عن خصوصيته الفكرية والفنية ، وهو ـ في هذا الإنشاء ـ يمكن أن يفيد من جميع المذاهب والتيارات والأفكار القديمة والحديثة .

وهو يمتلك رصيداً ضخماً من التجارب الأدبية ، والنماذج الإبداعية العظيمة ، فهذه الأمة أمة فصاحة وبلاغة ، معجزتها الكبرى كانت معجزة فكرية بيانية متمثلة في هذا الكتاب العظيم ، القرآنِ الكريم .

ولن يُكفل للأدب العربي الحديث أن يعبر المحلية إلى العالمية إلا بالخصوصية والفرادة أولاً . إن الخصوصية هي أول درجة في سلم العالمية . وأما تقليد أدب الآخرين ، ومذاهب الآخرين الفلسفية والفكرية ، واحتذاؤها ، وتقليدها ، فإنها تبعده عن العالمية درجات ودرجات .

إن تقليد مذاهب الأدب الغربي ومدارسه واتجاهاته لا تنتج إلا أدباً هو كصدى الصوت ، وظل الأشياء ، وسيقول الآخر الذي يقرؤه : ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ .

* * *

ولقد عرض الكتاب لهذه المذاهب الأدبية بكثير من الإيجاز والتبسيط ، من غير خوض في التفريعات والجزئيات ، ذلك أن كل مذهب من هذه المذاهب له كثير من التفصيلات والتعريفات ، كما أن أدباءه ـ وهذا هو الأهم ـ ليسوا نسخاً واحدة ، بل لكل منهم ـ في إطار المذهب نفسه ـ خصوصيته وتميّزه ، كما أن المذهب الأدبي يختلف من بلد أوروبي إلى بلد أوروبي آخر ، ولكنّ ذلك لا ينفي وجود ملامح مشتركة عامة تشكل قسمات المذهب الأدبيّ الواحد ، وتميّزه من غيره .

وإلى هذا أشار الناقد الفرنسي بول فان تيغم ـ وهو يعرض للمذاهب الأدبية الغربية ـ فبيّن ـ في أثناء كلامه على الروما نسبة ـ أنها ـ على الرغم من تعقدها ، وتعدد اتجاهاتها

وصورها وأشكالها ـ «تنطوي على وحدة واضحة المعالم إلى الحدّ الذي يخوّلنا أن ندرسها دراسة شاملة يتراءى فيها ذلك التعقُّد وهذه الوحدة معاً . .»[1] .

ولقد حاولنا في هذا الكتاب أن نتغاضى عن هذه الفروق بين أصحاب المذهب الواحد ، وعن تعدد صوره بحسب البيئة الأوروبية التي يكون فيها ، وأن نتوقف فقط عند الملامح الكبرى التي تشكل الوحدة العامة لهذا المذهب أو ذاك على نحو ما يشير إلى ذلك تيغم .

وبعدُ

فإن هذا الكتاب جهد مُقِلّ في التنظير لأدب عربي حديث أصيل ، نابع من عقيدة الأمة ولغتها وشخصيتها ، وفي سبيل هذا التنظير لا بد من غربلة المعطيات الفكرية والفنية الكثيرة التي يتعامل معها هذا الأدب ، وبيان صحيحها من فاسدها ، وما يصلح منها مما لا يصلح . .

نفع اللّه بهذا الجهد ، وأجرى فيه السّداد ، وغفر لصاحبه ما قد يكون فيه من زلل أو شطط . . والحمد للّه من قبلُ ومن بعدُ . .

وليد (أبو أنس)

دمشق / الشام: ١٤٢٦/٥/٢٢هـ

٢٠٠٥/٦/٢٨م

(١) الرومانسية في الأدب الأوروبي : ١/ ١٢ ـ ١٥ .

obeikandi.com